الوقوف الهبطية

دراسة وصفية نقدية

د. ربيع شملال

جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر

الملخص :

اهتم العلماء في سياق خدمة القرآن بخدمة باب "الوقف والابتداء"، وما ذلك إلا لكونه يجمع بين خدمة الجمال الظاهر المتعلّق بالصوت، والجمالِ الضمنيّ المتعلّق بالمعنى.

وقد لقيت وقوف العلامة "محمد بن أبي جمعة الهبطي" انتشارا واسعا في المغرب العربي عامة والجزائر خاصّة، وارتبطت ارتباطا وثيقا برواية ورش ـ قراءة أهل المغرب ـ.

من هذا المنطلق، عملتُ على تأسيس هذه الحقيقة في هذا المقال، من خلال ثلاث نقاط:

ـ الأولى: ترجمة الإمام محمد بن أبي جمعة الهبطيّ
ـ الثّانية: منهجيّة الإمام الهبطي في وقوفه
ـ الثّالثة: مواقف الباحثين من وقوف الهبطي

الكلمات المفتاحية : وقوف، محمد بن أبي جمعة الهبطي، القرآن الكريم، علوم القرآن، الوقف والابتداء.

Abstract :

In the sream of serving Coran, scholars cares about " ELWAQF WA ELIBTIDAA " , because it combines between serving the outer beauty which is related to the sound and the inner beauty which is related to the meaning. We made this study for " WOKOOF MH BEN ABI DJOMAA ELHIBTI " for an important reason which is the spread of " WOKOOF ELHIBTI" in the Arab Maghreb in general and in Algeria in particular, also the reading/reciting of Maghreb's people sticks so much to " Warsh reciting " . I discussed his "AWQAF" in this article through three sections:

/١ *The first* : *El imam Mohamed Bno Abi Jomaa El Hibti*

/2*The second* : *The methodology of El Imam El Hibti in his "wokouf "*

3/ *The searchers' point of views from Hibti's wokouf*

Keywords *wokouf, Mohamed Bno Abi Jomaa El Hibti, the holy coran, Qoran Sciences, ELWAQF WA ELIBTIDAA*

مقدمة :

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله؛ وبعد:

فقد علم المسلمون عامّة وخاصّة أنّ القرآن جمع مع إعجازه البلاغيّ نواحي إعجازية كثيرة، سواء تعلّق الأمر بجانب المعنى (التفسير وعلومه) أو جانب الأداء والأصوات (التجويد وعلومه)، أو ما جمع بينهما وخدم كليهما.

فكان هذا أكبر محفّز للعلماء ليبذلوا جهدا مضاعفا في خدمة هذا الكتّاب الخالد الشّاهد بحقٍّ على نبوّة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، ولعلمهم بتنوّع علوم القرآن العزيز وغزارة فوائده فإنّهم قصدوا كلّ جانب منه على حدة، وخدموه خدمة متأنّية تليق بمكانته ووظيفته في خدمة البشريّة وقيادتها إلى النجاة في الدّنيا والآخرة.

ولعلّ من أهم الأبواب التي اهتموا بها ورعوها حقَّ رعايتها باب الوقف والابتداء، وما ذلك إلا لكونه يجمع بين خدمة الجمال الظاهر المتعلّق بالصوت، والجمالِ الضمنيّ المتعلّق بالمعنى، فهو ـ إذا شبّهناه ـ حلقة تربط بينهما وتمدّ أحدهما بضروريّ الآخر، وتردّ على الآخر بهاء ونضارة الأوّل.

فإذا كان القصد التدبر (أي المعنى) لم يكن أبلغ في إثارته والسيطرة عليه كإتمام الجمل واستوفاء المعنى، وإذا كان القصد التلذّذ وطلب انشراح الصدر فلا ضامن لذلك كالوقوف على رؤوس الآي ونهاية الجمل.

ولكنّ مواطن الوقف والابتداء لم ترد محدّدة في السنّة (عن النّبيّ صلى الله عليه وسلّم أو عن جبريل عليه السلام) ولا أثرت عن الصحابة كاملة، وإنّما ورد بعضها بقدر لا يفي بالغرض ولا بجزء صغير منه، فما كان إلا أن تصدى مجموعة من العلماء له، وصنعوا وقوفا مناسبة عند نهاية الجمل (على حسب ما قادهم إليه اجتهادهم) مع كلّ القرآن مستعينين بالتفسير وعلم التجويد والنحو العربيّ وكلّ علم من شأنه خدمة هذا الباب.

إذن هذه الوقوف الموجودة في المصاحف المطبوعة اليوم والمتوفّرة بين أيدينا هي وقوف ناتجة عن اجتهادات أصحابها، فلا بدّ أن نستحضر ـ عند أيّ دارسة متعلّقة بها ـ القاعدة النبويّة في الاجتهاد والتي شرحها النّبيّ صلى الله عليه وسلّم في قوله: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[1].

وإذا أردنا أن ندرس أيا من هذه الوقوف فلن يميل القلب إلا لوقوف العلامة محمد بن أبي جمعة الهبطي، وذلك لأسباب:

أهمّية الموضوع وأسباب اختياره:

لا بدّ أن يستحضر الباحث قبل الشروع في أيّ بحث أهمية البحث والأسبابَ التي دفعته إليه، لأنّ في ذلك تحفيزا له، ولقد فكرت في الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا البحث فوجدت من أهمها: الأهمية الكبيرة لهذا الباب بين علوم القرآن الكريم، أضف إليها:

- خدمة كتاب الله عزّ وجلّ سبب وجيه وداع ملحّ.

- إنّ باب الوقف والابتداء باب يستهوي طالب العلم الشرعي لما قدّمنا أنّه جمع بين خدمة المعنى والمبنى معا.

- أما السبب الأهمّ فهو انتشار وقوف الهبطيّ في المغرب العربي عامة والجزائر خاصّة، وارتباطها ارتباطا وثيقا برواية ورش ـ قراءة أهل المغرب ـ.

- ثمّ إنّ تضارب آراء العلماء واختلاف مواقفهم حولها جعلني أوقف مطالعتي وأحشد فكري وقلمي لعلّي أخرج بما يصلح محاكمة أو تقريبا لأفكارهم.

الدراسات السابقة:

ولقد سبق إلى دراسة أوقاف الهبطي مجموعة من الأفاضل، تنوّعت أوجه دراساتهم، واختلفت أحكامهم ونتائجهم، أذكر منها:

- تقييد وقوف الهبطي (قسم الدراسة منه). الحسن بن أحمد الوكاك.

- القراءات والقراء في المغرب. عبد الهادي حميداتو. (عقد في الجزء الرابع منه مبحثا مهمّا بحجم دراسة علميّة سرد وناقش فيها جوانب هامّة من وقوف الهبطي رحمه الله).

- منهجية ابن أبي جمعة الهبطي في أوقاف القرآن الكريم. بن حنفية العابدين.

- الأسس العامّة التي بنى عليها الإمام الهبطيّ وقوفه ـ دراسة وصفية نقديّة تحليليّة ـ مذكرة ماجستير من إعداد: محمد الصالح بوعافيّة. [2008/2009] جامعة الجزائر.

ـ مقال في مجلة القرآن الكريم التي تصدر عن إذاعة القرآن الكريم الجزائريّة، بعنوان: الوقوف الهبطية دراسة وصفية تحليلية.

غير أني أنبه إلى أنّ هذه الدراسات ـ وإن بدت متفقة متشابهة مع ما سأقوم به ـ فإنّها تختلف في الحقيقة معها في كون دراستي زيادةً على كونها وصفا متكاملا لأوقاف الهبطي؛ فإنّها ستجمع نتائج تلك الدراسات وتقرّب بينها.

ولا جرم أنّي سأستفيد منها جميعا وأجعلها على رأس مصادري ومراجعي.

• ولقد اخترت في الأخير لبحثي هذا أن يخرج في ثلاثة مباحث، فارتأيت أن أصدّره في الأوّل بمبحث في شكل مدخل أسوق فيه ترجمة للإمام محمد بن أبي جمعة الهبطيّ رحمه الله، أعرّف فيه بمراحل حياة الإمام وأذكر مآثره وآثاره.

ثم أعقبه بمبحث ثان أشرع من خلاله في بيان الوقوف الهبطية التي أثرت عن الإمام وسمّيت باسمه، فأذكر فيما أذكر منهجيته في وقوفه ومزايا تلك الوقوف.

وفي المبحث الثالث الذي تركته لبيان مواقف وآراء وأحكام الباحثين حول أوقافه، فإنّني سأفرز وأفرّق بين المنتصرين له والمعترضين عليه بما قادتهم إليه اجتهاداتهم الخاضعة للمنهج العلميّ.

ولن أذكر بحال أولائك الذين خرجوا عن المنهج العلميّ فتعصّبوا له أو نقموا عليه، وبالغوا في أوصافهم (له أو عليه)، وإذا اضطرّني الموقف إلى التعريج عليهم فلن أزيد على التلميح والإشارة دون التصريح والتبيين.

وأكتفي هنا ـ ردّا على الفريقين ـ بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "يهلك فيّ رجلان: محبّ مفرط ومبغض مفتر"[2].

المبحث الأوّل: فيه ترجمة الإمام محمد بن أبي جمعة الهبطيّ[3]

كلّ من ترجم له ذكر أنّ المراجع شحت لمّا اقتصرت على الضروريّ من ترجمته دون ما يخدم الإحاطة بجوانب حياته، فنجدها مثلا اقتصرت على لقبه واسمه واسم أبيه وكنيته، ولم تفصّل لنا

طلبه للعلم ولا تدريسه، ولا اهتماماته العلمية ولا مآثره ولا آثاره، حتى إذا عرجت على شيوخه وتلامذته لم تزد على اسمين أو ثلاثة.

وهذا مجمل ما قيل عنه:

هو أبو عبد الله الشيخ محمد بن أبي جمعة الهبطي الصماتي الفاسي الإمام العالم المتصوّف الزّاهد القدوة التّقيّ العابد النّحويّ المقرئ الكبير والفقيه الفرضيّ الشهير، كان يغلب عليه محبّة الله كابن الفارض؛ ولد في منتصف القرن التاسع الهجريّ، وحفظ القرآن وجوّده، ثمّ انتقل إلى فاس وأنهى دراسته بها، فأخذ الطريقة عن الشيخ عبد الله الغزواني[4] والعلوم عن الشيخ أحمد زروق والشيخ الخروبي الكبير الطرابلسي، وعنه جماعة منهم: عبد الواحد الونشريسي، وهو مؤلّف: تقييد القرآن.

وفيه قيّد وقوف القرآن التي هي موضوع بحثنا.

قال الزركلي في الأعلام: "والهبط: قبيلة أو بلد بالمغرب، كما في التاج"[5]. وفي منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطيّ لبن حنفية العابدين جاء تحديد ذلك:"ونسبته إلى هباطة وهي مداشر من قبيلة سماتة إحدى قبائل الجبل بشمال المغرب الأقصى"[6].

وقد كان رحمه الله عالم فاس في وقته، وكان فقيها نحويا فرضيا أستاذا مقرئا عارفا بالقراءات مرجوعا إليه فيها، وكان موصوفا بالخير والفلاح.

وقيل إنّه أخذ وقوفه وقيّدها عن شيخه العلامة ابن غازي (919هـ)[7]، كما أخذ سبويه النحو عن شيخه الخليل بن أحمد الفراهدي.

شيوخه: أخذ عن الشيخ أحمد زروق والشيخ الخروبي الكبير الطرابلسي والشيخ عبد الله بن محمد بن غازي وغيرهم.

تلامذته: لا بدّ أنّ شخصيّة علمية مثل الإمام الهبطيّ كانت تشدّ الرحال إليه رغبة في علمه، ولا بدّ أنّ النّاس قد أخذوا عنه العلم زرافات وآحادا، فقد ذكر مترجموه أنّ شهرته وشهرة وقوفه

بلغت أرجاء المغرب العربيّ وربّما تعدّته وهو حيّ متفرّغ للإقراء والتدريس، هذا مع ما علمت من حبّ النّاس في الأزمان المتقدّمة للعلم والرحلة في طلبه.

وأستدلّ على كثرة طلبته بعبارتين للكتّاني في سلوة الأنفاس:

ـ الأولى منهما صريحة في الدلالة على كثرة طلبته وهي قوله: "..وتلميذ بعض تلامذته سيدي إدريس المنجرة.."[8].

وهذا فيه دليل زائد على ما نحن بصدد تقريره وهو: أنّ طلبته وطلبة طلبته قد تصدروا الإقراء وحازوا المشيخة.

ـ والثانية هي ذكره لهجرة بعض الأعيان إلى فاس لغرض مناظرته حول موضوع وقوفه، فقال: "إنّ العلامة أبا عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمسانيّ قد ورد على محروسة فاس فاجتمع مع الهبطيّ فراجعه في بعض الأوقاف المقيّدة عنه على جهة إفسادها"[9].

فلا يتصوّر أنّها انتقلت في حياته واشتهرت هذه الشهرة من كتبه دون مشافهته والقراءة عليه، مع شهوة الإسناد وولع النّاس به في ذلك الزمان.

فلا يستغرب بعد هذا إلا كون المراجع لم تذكر من تلامذته[10] إلا عبد الله محمد بن عليّ بن عدّة الأندلسيّ (ت:975هـ) وعبد الواحد الونشريسيّ (ت:955هـ).

اشتغاله بالقرآن الكريم:

عرف عنه اشتغاله بالقرآن الكريم وخدمته له، فهو من أهل القرآن وعلومه وبه عرف واشتهر، فقد "أمضى.. شطرا كبيرا من حياته في تعليم القرآن الكريم، وتلقين رواياته، فكثر تلاميذه الذين أشاعوا مذهبه في الوقف وقيّدوه بالأخذ عنه، حتى اكتسح أقطار إفريقيا كلّها ولا سيّما بلدان المغرب الإسلامي، وأصبحت وقوفه مدوّنة في المصاحف المتداولة في هذا الجزء من بلاد الإسلام"[11].

قال الكتّانيّ في سلوة الأنفاس: "فهؤلاء ثلاثة من شيوخ القراء: الشيخ عبد الرحمن، وابن القاضي، وتلميذ بعض تلامذته سيدي إدريس المنجرة وولد سيدي إدريس وتلميذه؛ وهو سيدي

عبد الرحمن قد جزموا بأنّ صاحب الوقف هو دفين روضة الشيخ أبي زيد المذكور، وإليه المرجع فيه، لكونه محلّ بحثهم، وإماما من أئمّة فنّهم"[12].

وكان قد قال قبلها في ذكر تفنّنه: "وكان..مقرئا عارفا بالقراءات مرجوعا إليه فيها"[13].

آثاره: ذُكر من آثاره: تقييد وقوف القرآن الكريم (وموضوعه هو بحثنا).

وكتاب عمدة الفقير في عباد العلي الكبير.

أمّا كتاب تقييد الوقف فهو: كتاب مختصرٌ جِدًّا، اقتصر فيه الإمام الهبطي على الكلمات التي يُوقف عندها فقط، ويضع أمامها نقطة (للدلالة على أنَّ هذا هو موضع الوقف).

مثال ذلك: «...يَوْمِ الدِّينِ . نَسْتَعِينُ . وَ الضَّالِّينَ.

. ألم . رَيْبَ . يُنْفِقُونَ . مِنْ ربهم . الْمُفْلِحُونَ» وهكذا.

ورتبها على ترتيب المصحف الشريف: الفاتحة، ثم البقرة، فآل عمران...وهكذا.وبلغ مجموعُ الوقوفِ الموجودةِ في كتابه على ما حرَّره بعضُ الباحثين: خمسةً وأربعين وتسعمائةً وتسعةَ آلاف وقفة (9945 وقفة)[14].

ولكن قد أنكر بعضهم أن يكون قد ألّف في الوقوف كتابا، وغاية ما هنالك أنّ طلبته أخذوها عنه مشافهة، وعذره أنّه اشتغل بالتعليم.

قال بن حنفيّة العابدين: "الذي أرجّحه أنّ الهبطيّ لم يكتب تأليفا في الوقوف التي اختارها ليبيّن فيه وجه ما اختاره ويعلّله، ولا سيّما ما خالف فيه بعض من تقدّمه كالدّاني وابن الأنباريّ، فقد ذكر صاحب شجرة النّور الزّكيّة أنّ الهبطيّ هو صاحب تقييد وقوف القرآن ولم يضف لذلك شيئا.

وقال في مجلّة الرشاد المذكورة: ولم يصلنا من آثار الهبطيّ إلا هذا الوقف الموجود بين أيدي النّاس، وهو العنوان البارز للمصحف المغربيّ والطابع الشخصيّ للمدرسة القرآنيّة بالمغرب. وهذا

صريح في عدم وجود تأليف له، فإنّ الذي بين أيديهم إنّما هي الوقوف نفسها، لا التأليف الخاصّ....

ثمّ إنّ بعض إخواني جزاهم الله خيرا عن خدمة العلم بحث عن تلك الوقوف فوجدها وحصل على نسخة مسجّلة على قرص فوضعها بالمكتبة البلديّة عندنا في معسكر، فاطلعت عليها، وخطّها مغربيّ في غاية الوضوح، وهي في حالة جيّدة لكنّ فيها خرما كبيرا، ويرجع تاريخ الفراغ من نسخها إلى يوم الأحد من شهر ذي القعدة سنة: 1330هـ، وناسخها هو محمد بن مبارك السنوسيّ، جاء هذا في الخاتمة، وفي المقدّمة: هذا تقييد وقف القرآن العزيز من فاتحة الكتاب إلى آخر القرآن، قيّده بعض الطلابة (كذا) على الشيخ الأستاذ أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي رضي الله عنه"[15].

وفاته: توفي في ذي القعدة سنة930هـ بمدينة فاس رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

المبحث الثّاني: منهجيّة الإمام الهبطي في وقوفه

لا بدّ أنّ لمنهجيّة الهبطيّ وقواعده التي اشترطها على نفسه وسار عليها في وقوفه دورا مهمّا في شيوعها واشتهارها وكتابة القبول لها.

وحتى وإن زُعم غير هذا فإنّ معرفتها تفيدنا في أمور:

ـ تضع أمامنا صورة حيّة عن طريقة تجويد وتفسير وتدبّر كتاب الله العزيز.

ـ تسهّل علينا حفظ وأداء هذه الوقوف في مواطنها، وذلك لأنّ حفظ القواعد العامة في ذلك وأخذ تصوّر شامل عن طريقة وضعه لوقوفه يكوّن لدينا ملكة إنشائيّة قد تفيدنا في كثير من الأحيان في استذكار الوقوف، وربّما تعدّته إلى استحضار المعنى.

ـ نرجّح بها بين المنتصرين القائلين بأهمّيتها والمنتقدين النّافين عنها فائدتها، أو المغلّبين جانب القصور والأخطاء.

وقبل أن أدخل في شرحها أنبّه على أمرين:

الأوّل: أنّ منهجيّته قد استخرجها مجموعة من الباحثين كانوا قد استقرأوها وخبروها، واستخرجوا المتشابه والنظائر، واستنتجوا في الأخير من خلال الملاحظة الدّقيقة هذه المنهجيّة.

ومن أهمّ البحوث الرائقة في تبيين منهجيته:

ـ تقييد وقف القرآن الكريم (في قسم الدراسة) الدكتور الحسن بن أحمد الوكاك. ط: دار الحديث الحسنية. المغرب.

ـ منهجية ابن أبي جمعة الهبطي في أوقاف القرآن الكريم. بن حنفية العابدين. دار الإمام مالك. باب الوادي الجزائر.

الثانيّ: أنّنا سنقتصر على بعضها لا كلّها، وكذلك نقتصر ـ تحت كلّ عنوان ـ على مثال أو مثالين، على حسب وضوح المسألة أو غموضها، وعلى حسب ما تقتضيه الأحوال الأخرى، وذلك ما يتلاءم مع حجم المذكّرة، وحتى نحقق العدل فلا نخدم مبحثا على حساب مبحث.

منهجية الإمام الهبطي في وقوفه:

إنّ الإمام الهبطيّ "طلع على النّاس بأمر جديد في الوقف من أربعة أوجه:

الأوّل: أنه علّم هذه الأوقاف للطلاب بطريقة عمليّة، ممّا عجّل بفشوّها وأخْذ النّاس بها، لا سيّما وقد صادف فراغا عند النّأس كما تقدّم.

الثاني: أنّ أوقافه ليس فيها ما اعتيد من تقسيم الوقف إلى أقسامه المعروفة على ما فيها من خلاف عند أهل الفنّ، وقد علمنا أنّ هذا يناسب القراءة الجماعيّة التي كانت هي السّائدة وما تزال.

والثالث: اتباعه فيها المعاني والإعراب...

والرّابع: مخالفته للوقف على رؤوس الآي اتباعا لجمهور القراء"[16].

ولقد "بنى مذهبه في الوقف على مراعاة الإعراب والمعنى في الوقف والابتداء، وربّما كان بعضه خاضعا لنكت في التّفسير، والبعض الآخر لمدارك في الفقه والتّشريع، أو لوجه من وجوه

القراءات، أو لأسرار وحكم قد لا يدركها القارئ العاديّ، وإنّما يعقلها العالمون المختصّون في الفنّ"[17].

هذا في الجملة وإليك تفصيل منهجيّته[18] وخصائص معالمه:

1 . **الاختيار التفسيري**:

الأصل في الوقوف الهبطيّة وأيِّ وقف أن يبنى على الاختيار التفسيريّ، لما له من أهمّية في تقريب الفهم وتصويبه من جهة، ولأنّه لا بدّ من الرّجوع إلى أقوال العلماء والترجيح بينها واختيار قول من أقوالهم الواردة في تفسير الآية من جهة أخرى.

وذلك لاعتبار مهمّ هو أنّ القول في كتاب الله توقيفيّ كما هو معلوم، والوقف والابتداء قول في كتاب الله.

لقد بنى ـ كما هو الظّنّ به ـ رحمه الله جلّ وقوفه على الاختيار الذي ترجّح لديه من أقوال العلماء في الآية، وهنا يجب أن يذكر القارئ فضل الإمام وجهده الذي بذله، لأنّه لا يُتصّور فعل كهذا إلا بمراجعة مجموعة كبيرة من التفاسير.

ولعلّ هذا أهمّ باب دخل عليه منه المنتقدون، ولهم فيه نصيب كبير من الحقّ وإن أخطأوا، وكذلك لا يلام هو أيضا وإن أخطأ، لأنّ مدار تلك الاختيارات مبنيّ أصلا على الاجتهاد الذي يؤجر عنه الإنسان المجتهد في صورتيه.

ولا يحكم في مثل هذه الحالة بين الخصمين إلا بتعمّد الخطأ، ثمّ بنسبته، فإذا كان الخطأ غير متعمّد ولم يجتز القدر الذي يعفى عنه، حكم له، وإن العكس حصل كان الحكم عكسيّا أيضا.

أمّا الحكم الأوّلي الذين نستطيع تقديمه للقارئ من خلال دراستنا لأوقافه هو: أنّ جلّ اختياراته التفسيريّة لم تخرج عن أقوال العلماء والصحابة في تفسير الآية، فتكون ـ بناء على هذا الحكم ـ وقوفه مزيّة تذكر له.

أمثلة ذلك:

الْمِثَــالُ الْأَوَّلُ: قال الله تعالى: "وَإِذَ اتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ(ص) وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تهتدُونَ" [البقرة:53].

اختُلِفَ في معنى الفرقان في هذه الآية على خمسة أقوال:

الْأَوَّلُ: أنه النَّصْرُ، الثَّانِي: أَنَّهُ مَا فِي التَّوْرَاةِ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، الثَّالِثُ: أَنَّهُ الْكِتَـابُ، فَكَرَّرَهُ بِغَيْرِ لَفْظِهِ، الرَّابِعُ: أَنَّه فَرْقُ الْبَحْرِ لَهُمْ، الْخَامِسُ: أَنَّهُ الْقُرْآنُ.والذي اختاره ابنُ أبي جمعة الهبطي رحمه الله هو القول الخامس، يُرشِدنا إلى هذا الوقفُ الذي وضعه في"الْكِتَابَ (ص)"، ثم الاستئناف بـ "وَالْفُرْقانَ"، ومعنى الآية على هذا القول: وإذ آتينا مُوسَى الكتابَ ومُحَمَّدًا الفرقانَ، ذكره الْفَرَّاءُ وهو قولُ قُطْرُبٍ.

الْمِثَالُ الثَّانِي: قوله تعالى: "وَإِذَ اخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمُ وأَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى ص شَهِدْنَا أَنْ تقُولُوا يوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غَافِلِينَ" [الأعراف: 172].

فإن قولَه تعالى: "شَهِدْنَا"، اختلفوا فيه: أَهُوَ مِنْ قولِ الملائكة أم من تمام كلام الذُّرِّيَّةِ؟.

واختارَ الْهَبْطِيُّ بِوَقْفِهِ القولَ الْأَوَّلَ، وتقرير معنى الآية على هذا الوقْف، أن الذُّرِّيَّةَ لما قالوا: "بلى ص"، قال اللهُ للملائكةِ: اشْهَدُوا، فقالوا: "شَهِدْنَا".

قال الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: "وعلى هذا القولِ يَحْسُنُ الْوَقْفُ على قولِه: "قَالُوا بَلَى (ص)"، لأنَّ كلامَ الذُّرِّيَّةِ قد انْقَطَعَ هاهنا، وقولُه: "أَنْ تَقُولُوا يوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين"، تَقْرِيرُه: أَنَّ الملائكةَ قالوا شَهِدْنَا عليهم بالإقرارِ لِئَلَّا يقولوا: مَا أَقْرَرْنَا، فأسقط كلمة (لَا) كما قال: "وَأَلْقَى فِي الارض رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُم"[النحل: 15]، يُرِيدُ: لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُم، هذا قولُ الْكُوفِيِّينَ، وعند الْبَصْرِيِّينَ تقريرُه: شَهِدْنَا كراهةَ أَنْ تَقُولُوا ".18

الْمِثَالُ الثَّالِثُ: قول الله تعالى: "قَالَتِ اِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً افْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يفْعَلُونَ (ص)" [النمل:34].

اختُلِفَ هل "وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (ص)" من تمام قول ملكة سبأ، أو هو كلام مُستأنف من كلام الله تعالى، والذي يختاره الإمام الهبطيُّ رحمه الله هو أنه كلام مُستأنف من كلام الله، وليس هو من تمام كلام ملكة سبأ، كما يُرشد إلَى هذا الوقْفُ الذي جعله على كلمة "أَذِلَّة (ص)" ثُم الاستئناف بـ: "وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (ص)".

2 . **فساد المعنى بالوصل**:

هذا المعلم معلم مهمّ، متعلّق بالذي سبقه، أي بالاختيار التفسيريّ، إذ لا يعرف فساد المعنى عند إتمام القراءة إلا إذا عرف تفسيرها.

وله تعلّق أيضا باللّغة والإعراب خاصّة، وهو من هذا الباب أيضا متعلّق بالاختيار التفسيريّ، لأنّ التفسير متعلّق بلغة العرب وديوانها.

إنّ اهتمام الإمام الهبطي بالمعنى مرّة أخرى، وحرصه كلّ الحرص على وضع علامة وقفه أمام الكلمة التي يوهم تعلقها بما بعدها معنى فاسدا غير مراد لله تبارك وتعالى، لهو خير دليل على فقهه وحرصه على خدمة الكتاب العزيز أحسن خدمة، ودليل آخر على أنّ هذه الوقوف علم يستحسن اتباعها، أو على الأقلّ لا يعاتب متبعها.

أمثلة ذلك:

الْمِثَـالُ الْأَوَّلُ: قول الله تعالى: "وَلا يحزنك قَوْلهم (ص) إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جميعا وأن الله هَو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [يونس: 65].

فالوقف على " وَلا يحزنك قَوْلهم (ص)" وقفٌ واجبٌ، إذ الوصل يوهم خلافَ المقصود من الآية، فيكون "إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جميعا (ص)" من مقولِ الكفار، فنهى اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم عن أن يُحزنه قول الكفار هذا!!.

وهذا القول لا يُحزن النبيَّ صلى الله عليه وسلم على فرض أن الكفار قالوه؛ ولهذا يجب الوقف على"قَوْلهم (ص)" ثم الاستئناف بـ: " إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جميعا".

الْمِثَالُ الثَّانِي: قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِص (6) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ" [غافر: 6-7].

فهنا يجب الوقف عند "أَصْحَابُ النَّارِ(ص)"، ثم الاستئناف بـ "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ"، لأن وصلَ الجميعَ يُوهِمُ أن "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ" وصفٌ لأصحاب النار، وهو ظاهر الفساد، وقد نبَّه عليه النَّسَفِيُّ عند تفسير هذه الآيةِ.

3. **مراعاة الإعراب:**

"لا يخفى أنّ حاجة فنّ الوقف والابتداء إلى علم النّحو شديدة، وعلاقته به جدّ وطيدة، ..ولذلك نجد كثيرا من المفسّرين والمعربين يرجّحون بعض مواضع الوقف على بعض إذا وجدوا ما يقوّيها في الإعراب، وقد يردون بعضها إذا لم يسعفها....

والحقيقة أنّ التوجيهات النحوية للوقوف متصلة بالمعنى والتّفسير، بل لا تنفكّ عنهما"[19].

مثالها:

ومنها وقفه على "الذين كفروا" من قوله تعالى: "وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ". [البقرة:89].

وقد اختلف في جواب: "ولمّا" فقيل: حذف جوابها للاستغناء عنه، وتقديره: أنكروه، ولعله تقدير الهبطيّ في وقفه[20].

4 . **ضبط المتشابه بالوقف للتّمييز بينهما:**

رغم أنّ كتاب الله من جوامع الكلم ودرر الحكم، وعبارته عذبت حتى كادت تعلق بذهن الإنسان دون تعهّد وتكرار، إلا أنّه أشدّ تفلتا من الإبل في عقالها كما في الصحيحين[21] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: "تعاهدوا القرآن، فو الذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقالها".

لحافظ القرآن قد يجد صعوبة في حفظه أو بالأحرى في الحفاظ على حفظه، ولعلّ أصعب ما يعالج حافظ القرآن في ذلك مواطن المتشابه، فيحتاج إلى قرائن ظاهرة وأمارات لافتة يفرّق بها بين الموطن الفلانيّ والموطن الفلانيّ من المتشابه.

هذا كان له تأثير على صنع الإمام الهبطي بعضَ الوقوفاتِ، وهذا مما يؤثر له، لقد وضع بعضها ليُسهِّلَ على الحافظ استحضاره للآيات، لئلا تختلط عليه المواضع المتشابهة.

قد يقول بعض القائلين: إنّ ذلك قليل الجدوى، وقوله صحيح لو كان يخصّ بعض الحفّاظ، لكنّ صعوبة المتشابه يعانيها جمّ غفير من الحفّاظ، ومن عاين أيّ مسجد أو مركزٍ لتحفيظ القرآن سيجزم أنّ الحاجة ملحّة لوضع كتاب في ذلك.

ولقد وضع بعضهم كتبا في التفريق بين المتشابه، ولكنّ طريقة الإمام الهبطي في إقحام ذلك في الوقوف أحسن وأحكم، خاصّة إذا علمت أنّ قراءة كتب المتشابه صعبة، فكيف والهمم ضعفت وتقاصرت.

أمثلة ذلك:

الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: قوله تعالى: "وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًاص. وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (ص)" [الفرقان: 22-23]، وفي مقابله قولُه تعالى: "وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (ص) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا(ص)" [الفرقان:53/54].

ففي الآية الأولى يقف عند "حِجرًا (ص)"، ويستأنف بـ "مَحْجُورًا (ص)"، وأما في الآية الثانية فيقرأ "وَحِجْرًا مَحْجُورًا (ص)" ثم يستأنف بـ: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا".

الْمِثَالُ الثَّانِي: قولُه تعالى: "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ (ص)" [يونس: 24]، ويقابله قولُه تعالى: "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ (ص) بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ (ص) وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا"[الكهف: 45].

ففي الأولى يوقف عند : "فَاخْتَلَطَ (ص)"، ثم يُستأنَفُ بـ "به نَبَاتُ الْأَرْضِ"؛ وفي الآية الثانية يصِلُ ذلك.لئلا يشتبه على القارئ، فتتداخل عليه الآيتان، فيقرأ في سورة يونس -مثلا-: "فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا" ثم يصل معها: "تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ (ص)".

5 – **الأدب مع الله وأنبيائه:**

ومن منهجه الذي رسمه خطّة لوقوفه: "الاحتياط للعقيدة في جانب الله تبارك وتعالى، كما تراه في وقفه في سورة الأنبياء في قوله تعالى: "لاتخذناه من لدنّا" وفي سورة الزخرف: "قل ان كان للحمن ولد" وفي وقفه في سورة القيامة على قوله: "بلى (ص) قادرين على أن نسوي بنانه""[22].

وكذلك كان من منهجه "الاحتياط في جانب الرّسل ورسالاتهم، باستعمال الوقف لتأكيد صدقهم، وتبرئتهم من الأقوال التي وردت في بعض التفاسير"[23].

وهذا من الخلق الذي طبع عليه أهل الفطر السليمة، وهو الأدب مع الفضلاء فكيف مع الأنبياء؟.

ثمّ هو من اللباقة وحسن الكلام، ولقد قرأت في مآثر أبي بكر رضي الله قصّة مفيدة لها علاقة بما نحن فيه، وذلك أنّه روي أنّ رجلا مر بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومعه ثوب فقال له أبو بكر: أتبيعه؟. فقال: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت ألسنتكم، هلا قلت لا ورحمك الله.

مثاله: قول الله تعالى:"وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ () وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ (ص) وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (ص)" [يوسف:27/26]فلم يقف عند "وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ"، ليُشير إلى أن هذا الاحتمال ليس بواردٍ أصلًا، ثم وقف عند قوله: "فَكَذَبَتْ (ص)" كأنه يُشير بذلك إلى الحكم النهائي، وهو كَذِبُ امرأةِ العزيز، واستأنف الحكمَ على يُوسُفَ عليه السلام بالصِّدْقِ، "وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (ص)".

6. فصل صفات الله تعالى بعضها عن بعض، والفصل بين الأمور المتناظرة والمختلفة:

فالفصل بين صفات الله تبارك وتعالى "يؤدّي إلى التّملّي في هذه الصفات، والانتفاع بالوقوف على كلّ منها، وهو مقصد حسن، كما تجده في وقوفه على فقرات آية الكرسيّ وغيرها"[24].

"والفصل بين الأمور المتناظرة والمختلفة كأهل الجنّة وأهل النّار والمومنين والكفار، وأنواع المخلوقات والمحاورات، وذكر أقوال التجادلين ونحو ذلك"[25].

المبحث الثّالث: مواقف الباحثين من وقوف الهبطي

"كغيره من اجتهادات العلماء ما زال هذا الوقف محلّ نظر ونقد من قبل العامّة والخاصّة، منذ زمن الهبطيّ إلى يومنا هذا، فريق يستحسنه غال فيه، وفريق يستهجنه جاف فيه، وبين هذا وذاك متحفّظ أو منصف أخذ ما استحسنه وردّ ما استهجنه، وقليل ما هم"[26].

تذكر المراجع أنّ انتقاد وقوف الهبطي بدأت في عصره، وهذا لا مشاحة فيه، ولا يدلّ بحال على أنّها غير مرغوب فيها، بل غاية ما يدلّ عليه أنّ عليها بعض المآخذ والاستدراكات كما هو الحال مع أيّ عمل أو صنيع أو تأليف بشريّ، بل قد يدلّ على أهمّيتها؛ من باب أنّ الشيء إذا كان عظيما وظهر تفوّقه وبان تميّزه كثر حساده من جهة، وتكلّم عنه العلماء والباحثون مبدين فيه آراءهم من جهة أخرى.

قلت: إنّ الكلام عن الوقوف الهبطية بدأ في عصر المؤلّف رحمه الله فمدحها قوم وانتقدها قوم، ومعرفة حجج كلّ فريق مهمّ لنميّز المصيب من المخطئ والمحقّ من المبطل، وضروريّ لأنّ انتهاج قواعد البحث العلميّ المنتصر للحقيقة على حساب الأشخاص يقتضيه، وهو من باب العدل الذي أمرنا به في آيات وأحاديث تفوق الحصر.

قال الشيخ بن حنفية العابدين فأجاد: "وقد رأيت النّاس إزاءها ما بين مفرط في التّعصّب لها كما ذكرت، ومفرط في التّبرّم بها والإنكار عليها، فكثر الكلام من أناس، والانتصار لها من آخرين، والتّعصّب مذموم سواء كان للمرء أو عليه، والموازين العلميّة هي الفيصل في تقويم أعمال

البشر التي لا تخلو من نقص، قال تعالى: "أفلا يتبدرون القرآن ولو كان من غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[27]"[28].

1. **المنتصرون وحججهم**:

انتصر قوم للوقوف الهبطيّة ودافعوا عنها دفاعا، خاصّة من تربى عليها في مسجده أو زاويته وعلم فضلها، ولهم حجج في ذلك منها:

ـ أنّ باب الوقف والابتداء كما هو معلوم باب اجتهاديّ، فلا يستحسن أن يأخذ أحد على أحد فيه.

ـ أنّ دراسة منهجه دراسة متأنّية ستبيّن أنّه لم يكن في تقعيده لوقوفه بمبتدع ولا مخالف لأصل من أصول التجويد ولا التفسير ولا العربية، وما كان هذا شأنه فهو من قبيل الشيء المباح الذي يرجع الحكم فيه عادة إلى الذوق والميول والرّغبة، فمن شاء أخذ بها وقد ظفر، ومن شاء ترك.

ـ أنّ نفع وقوفه قد ظهر في الواقع، فهي تساعد على التدبّر وتقرّب الفهم، وتفرّق بين المتشابه فيسهل الحفظ وتتيسّر مراجعة القرآن واستحضاره.

ـ "شهادة أئمة هذا الشأن له بالحذق في أكثر من فن، ولاسيما في علم النحو"[29].

- وممّا لاحظته عند المنتصرين له أنّهم جميعا اتفقوا على اعتبارها من أحسن الوقوف، ورأوا استحبابها لما لها من نفع، ولكن لا أحد ألزم بها أو جعلها بمنزلة الأمور التعبّديّة[30].

وكلّهم اعترفوا كذلك بحدوث الخطأ عليها، ورأوا أنّ تلك الأخطاء يجب أن تصلّح وينبّه عليها، لا أن تسقط هذا الجهد الجبار ـ الذي أهداه هذا العالم ـ بكامله.

فمن انتصر له:

الأستاذ عبد الحليم قابة حيث قال: "وأغلب مصاحف المغاربة ـ ومنها مصاحف الجماهريّة الليبيّة ـ اعتمدت الأوقاف الهبطية.... التي جرى عليها العمل بالمغرب ويُشار إليها بحرف

(ص)، ومع ذلك فهي ليست مُلْزِمَـةً، بحيث لا يسع الإنسانَ مخالفتُـها، وقد خالفتها بعضُ اللجان في الأزهر والسعودية، عند تدقيق وطباعة بعض المصاحف على رواية ورش"[31].

فقوله: "ومع ذلك فهي ليست مُلْزِمَـةً، بحيث لا يسع الإنسانَ مخالفتُـها"، ينبئ صراحة بأنّه يرى أنه يستفاد منها.

وقال الدكتور عبد الهادي حميداتو: "وسيأتي لنا أن طائفة من الوقفات التي ينتقدها المتأخرون عادة على الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي ـ واضع الوقف المغربي المقروء به في الوقت الحاضر بالمغرب والشمال الافريقي ـ هي في الواقع من اختيارات نافع في كتاب التمام، وأولها الوقف على "ذلك الكتاب لا ريب" في أول سورة البقرة[32]"[33].

ثمّ قال: "بل إني وجدت أكثر من ذلك أن التزام الإمام الهبطي لمذهب نافع في بعض الوقفات التي نقلت عنه هو الذي عرضه للانتقاد، وفوّق إليه سهام الاتهام، ودون إطلاع من المنتقدين على موافقته لنافع أو مخالفته، مع أن ذلك كان منهم مطلوبا، أولا لمعرفة بعض مصادره ومستنداته في هذا الوقف، وثانيا ليتوجه النقد إلى من تقدموه إلى الوقف في هذه المواقف قبل أن يتوجه إليه. وثالثا ليعلم أن موافقته لنافع في بعضها ربما كانت منذ البداية من المبادئ التي وضعها نصب عينيه وهو ينتقل بين مواقع الوقف من كتاب الله إيثارا للموافقة والاتباع على المخالفة بالرأي والاختيار الشخصي"[34].

وقال بن حنفية عابدين: "وعلى العموم فإنّ منهجه رحمه الله يدلّ على عمق تدبّره لكتاب الله، وقوّة غوصه على معانيه، وتضلّعه واطّلاعه على أقوال من تقدّمه من أهل الوقف والابتداء، ووقوفه من قبيل الوقوف المقبولة؛ فيها التام، وكثير منها من قبيل الكافي، وفيها الحسن والظاهر، وهو كاف عنده باعتماد خفيّ الإعراب المحتاج إلى التقدير، وفي القليل منها تكلّف وشذوذ اعتمد في معظمه على من تقدّم"[35].

وقال عبد الواحد المارغني: "واعلم أنّ أوقاف الشيخ الهبطي رضي الله عنه كلّها مرضية موافقة جارية على قواعد فنّ القراءات ووقوفه، وما تقتضيه العربيّة وأصولها.."[36].

وكان من نتائج الباحث: محمد الصالح بوعافية التي توصّل إليها من خلال دراسته للوقوف الهبطيّة أن قال: "إنّ وقوف الهبطيّ في عمومها مبنيّة على قواعد فنّ الوقف والابتداء، جارية على تقريرات علماء هذا الفنّ، خاضعة لضوابط التفسير وقواعد النّحو، وما تقتضيه أصول قراءة الإمام نافع.

فالمبالغة إذن في استهجان بعضها وكثرة رميها بالمغامز يوحي بخلاف ما ذكر، والأولى من ذلك محاولة استبدالها بما هو راجح، والتماس العذر للهبطيّ فيها، فإنّ ضعف هذه المواطن المعدودة مغمور في بحر حسنات اجتهاده المحمود"[37].

2. المنتقدون وحججهم:

أخذ عليه مجموعة من الباحثين والمشايخ وقوفه واعتبروها غير مجدية لكثرة الأخطاء التي فيها؛ حتى وجد من انتقده في حياته؛ قال صاحب سلوة الأنفاس: "إنّ العلامة أبا عبد اله محمد بن يوسف السنوسي التلمسانيّ قد ورد على محروسة فاس فاجتمع مع الهبطيّ فراجعه في بعض الأوقاف المقيّدة عنه على جهة إفسادها"[38].

مجمل ما أخذه المنتقدون عليه[39]:

أخذ عليه المنتقدون في وقوفه جملة من الأمور منها:

ـ أنّه بالغ في جنوحه إلى الوقف التام أحيانا، مما دعاه إلى إيثار الإعراب الخفي المحتاج إلى التقدير؛ على الجليّ الذي لا يحتاج إلى تقدير.

ـ إيثار أوجه الإعراب التي تلتئم مع منحى تأويل آيات الصفات التي قيل إنّه يؤدي إلى التشبيه عند الأشعريّة وغيرهم متى أمكن ذلك.

ـ انتصاره لمذهبه الفقهيّ المالكيّ وهذا فيه تحجير واسع.

ـ مخالفته للوقف على رؤوس الآي.

ـ وإذا تكرّر السياق بلفظ واحد فقد يقف على كلمة في موضع، ولا يقف عليها في الموضع الآخر، وقد لا يجد الباحث وجها لهذا الاختلاف.

ـ مخالفته لبعض ضوابط الوقف والابتداء التي ذكرها العلماء.

وإليك بعض النقول المنتقِدة:

قال الأستاذ عبد الله بن الصديق الغماري في كتابه الذي سمّاه: منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي: "أردت أن أقوم بهذا الواجب عن نفسي وعنهم، بتأليف هذه الرّسالة التي أبيّن فيها بحول الله الوقوف القبيحة وأنا أعلم أنّ أفرادا من العامّة وأشباههم ستأخذهم الحمية للهبطي على حساب كلام الله تعالى، فيرفعون عقيرتهم بذمّ عملي هذا، غير مدركين ما فيه من تنزيه القرآن عن الخطأ واللحن..

وأقول لهؤلاء: قد نصّ العلماء على أنّه لا يجوز تخريج شيء من الآيات على تقديرات ضعيفة، لأنّ ذلك يؤدّي إلى أن يكون في القرآن ما ليس بفصيح، وهذا خطير جدا، لأنّ القرآن ليس فيه إلا الفصيح والأفصح"[40].

وقال: "...ولا أدري ما الداعي على اختيار هذه الوقوف التي يحتاج تصحيحها -إن أمكن- إلى تمحل في الإعراب وتكلف في التقدير، مما ينافي بلاغة القرآن التي أعجزت الإنسَ والجانَّ؛ مصحف حفص المطبوع بمصر، أُخِذَت وقوفُه من كتب القراءات والتفسير، بمعرفة جماعة من كبار قُرَّاء السَّبْع، وعلماء العربية، فجاءت وقوفًا صحيحة، خالية من التكلف والتمحل؛ فلماذا لا نفعل مثلهم في مصحف ورش؟ ونضع له وقوفا سليمة، ترشد التالي للمعنى، وتعينه على فهم المراد، وتعْفِيه من عناء التقدير؟ ولماذا نجمد على وقوف وُضعت منذ أربعة قرون؟ ومهما قيل عن واضعها من فضل وصلاح، فإن ذلك لا يجيز إبقاءَها على الوضع الحالي، بل يجب استبدال الصواب مكان الخطأ، والحسن مكان القبيح".

وقال: "فيجب شرعا تغيير تلك الوقوف.. لئلا يتلى كتاب الله بوقوف فاسدة"[41].

وكتب الدكتور محمد الأوراغي من كلية الآداب، جامعة محمد الخامس مقالا لمجلّة، سمّاه: المستقبح في وقف الشيخ الهبطي، وأظنّه ـ من خلال العنوان ـ ممّن أغلظ في النّكير على أوقاف الهبطيّ رحمه الله.

مثال من الوقوف المنتقَدَة عليه وتوجيهه:

لقد علمت أنّ كثيرا من المنتقدين أخذوا على الإمام الهبطي بعض الوقوف ورأوا أنّه خالف فيها قواعد الوقف والابتداء التي حكاها العلماء المتقدمون في كتبهم، ورأوا أنّ ذلك حجة كافية لإسقاط وقوفه جملة.

والردّ عليهم يكون من وجهين:

الأول: أنّ مثل هذه الأخطاء لا ينجو منها أيّ عمل بشريّ، فإذا اعتبرناها حجة لإسقاط الوقوف جملة، سيسقط بعدها كلّ عمل بشريّ مهما كان ومهما كان صاحبه ـ حاشا النّبيّ صلى الله عليه وسلّم ـ لأنّه لا بدّ أن يتخلّله القصور.

الثاني: أنّ جلّ تلك المآخذ والانتقادات له منها مخرج، وهو عن التعمد وفحش الغلط براء، وإليك مثال توضيحيّ لذلك:

قال الدكتور عبد الهادي حمداتو: "ومن أمثلة الوقف الذي يقرأ به حتى الآن وشنع به المنتقدون كثيرا على الإمام الهبطي: - قوله تعالى في آخر آية من سورة "الأحقاف": "فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون".

وقف الهبطي حسب التقييد الذي عليه التلاوة الآن "ولاتستعجل" ثم "بلاغ"...وقد محص أبو جعفر النحاس هذه المواقف فقال عند هذه الآية: "وقال أبو حاتم: أخبرني من لا أطمئن إليه أن الوقف "ولا تستعجل"، ثم ابتدأ "لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ" أي لهم بلاغ، قال - وهذا مما لا أعرفه ولا أدري كيف تفسيره ؟ وهو عندي غير جائز... وعن نافع: "إلا ساعة من نهار" تمّ، وإن شئت وقفت على "بلاغ"... إلخ.

فهذا الموضع من الوقف أيضا له صلة باختيار نافع من جهة، وفيه خلاف قديم قبل وجود الهبطي ووقفه. وقد عزا أبو زيد بن القاضي القول الموافق للهبطي إلى ابن مجاهد شيخ القراء فقال في "القول الفصل":

"وقدر ابن مجاهد" "بلاغ" مبتدأ وخبره "لهم" ووقف على "تستعجل"، وليس بجيد لما فيه من تفكيك الكلام بعضه من بعض، لأن الظاهر في له تعلقه بقوله "ولا تستعجل"....

مهما يكن إذن فالوقف على "ولا تستعجل" كيفما كانت درجته المسوغة له فهو مسبوق إليه من لدن شيخ القراء ابن مجاهد، وهو مبني على تأويل معين وقد تعرض له الإمام الداني ولم يرتضه ورأى لزوم تعليق قوله "لهم" بقوله و"لا تستعجل"، لأن المعنى "ولا تستعجل للمشركين بالعذاب".

ولهذا لا يمكن اتهام الإمام الهبطي - إذا صح عنه هذا الوقف - بقصر الباع، وقلة الإطلاع، ولا ينبغي تبعا لذلك أن نقع فيه بسببه فنقول كما قال في "منحة الرؤوف": "الوقف على "لهم" وقف واضح يدركه من قرأ "المقدمة الأجرومية"، ولكن الهبطي وقف على "تستعجل" وهو ممنوع باتفاق كما سبق في سورة يونس حين وقف على "اختلط". ولا أرى أني في حاجة إلى مزيد من التعليق على هذا الإزراء بالجهل على الإمام الهبطي رحمه الله.

وهكذا لو ذهب الباحث يتقصى جملة الأوقاف الكثيرة المنتقدة عليه في القائمة التي نجدها عند عدد ممن تعرضوا بالنقد لهذا التقييد لوجده مسبوقا إليها، إما بقول ليعقوب الحضرمي إمام أهل البصرة في القراءة بعد أبي عمرو، أو لمحمد بن يزيد المبرد شيخ نحاة البصرة في زمنه، أو أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني أو أحمد بن جعفر الدينوري أو سعيد بن مسعدة الأخفش أو أبي بكر بن مجاهد أو سواهم من أهل القراءة والعربية ممن نجد أقوالهم ومذاهبهم في موضوع الوقف في موسوعة أبي جعفر النحاس أعني "كتاب القطع والائتناف" وغيره، كـ "إيضاح الوقف والابتداء" لابن الأنباري وكتاب "المكتفى" لأبي عمرو الداني و"منار الهدى" للأشموني وغيرها. ومن هنا يكون من الظلم للإمام الهبطي أن نتهمه بالإقدام على كتاب الله والقول فيه بغير علم ولا مستند، لاسيما مع ما شهد له المترجمون له به من الأستاذية في القراءة والعربية وغيرها حتى

وصف بـ "عالم فاس"، فضلا عن أن نصل إلى رميه بكونه "لا يرجع إلى قاعدة، وإنما يرجع إلى ما يظهر له".

والآن وقد برأنا أو قدمنا ما لعله يكون كافيا لتبرئة الإمام الهبطي من حيث المبدأ من التسوُّر على هذا الفن والدخول فيه بغير سلاح نعود إلى نسبة هذا الوقف الذي بين أيدينا إليه جملة وتفصيلا"[42].

الخلاصة:

الذي استخلصته من خلال تتبعي لأقوال الفريقين، أجد نفسي ترتاح لحكم الشيخ ابن حنفية العبدين ـ ومن وافقه من الأفاضل ـ الذي ذكرته سابقا وأكره هنا، والذي يبدو أنّه نابع عن نفس متشبّعة بالعدل والإنصاف، إذ لم يحكم جزافا لمجرّد اطلاعه على حكم أو حكمين، وإنّما ببذل جهد في الموازنة بين المزايا والنقائص، فأين العيب إذا صدح في الأخير برأيه واصفا كفّة المزايا الظاهر رجحانها.

قال حفظه الله: "وعلى العموم فإنّ منهجه رحمه الله يدلّ على عمق تدبّره لكتاب الله، وقوّة غوصه على معانيه، وتضلّعه واطّلاعه على أقوال من تقدّمه من أهل الوقف والابتداء، ووقوفه من قبيل الوقوف المقبولة؛ فيها التام، وكثير منها من قبيل الكافي، وفيها الحسن والظاهر، وهو كاف عنده باعتماد خفيّ الإعراب المحتاج إلى التقدير، وفي القليل منها تكلّف وشذوذ اعتمد في معظمه على من تقدّم"[43].

الخاتمة:

هذا ما تيسّر لي جمعه ومناقشته في هذا البحث المستعجل، وإنّي أوجز ما توصّلت إليه في النّقاط الآتية:

ـ بينت فيه أن فن الوقف والابتداء فن رفيع يعرفه أهل التجويد والتفسير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلم وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال.

ـ بينت أيضا أنّ عصر الإمام الهبطي رحمه الله شهد أخذا وشدّا حول وقوفه، فمن منتصر له ومنتقد، ومادح لوقوفه وذام.

ـ وناقشت بعد عرض بعض ما انتقيت من كلام الفريقين، وتوصّلت إلى أنّ عمله عمل مضن يستحقّ المدح والثّناء، وأنّ الذين انتقدوه عليها نظروا إلى آحادها فاستعظموا الخطأ فيها، ولم يوازنوا بين حسناتها وسيّئاتها.

ـ وخلصت إلى أنّها وقوف جيّدة في العموم وأنّ الشذوذ الحاصل فيها يستدرك ويصلّح، ولا يسكت عنه، وبالمقابل لا يمكن إلا لجاحد أن يطالب بإلغائها أو إهمالها.

ـ على أنّي حملت نفسي في ذلك كلّه على التمثيل والاستشهاد بكلام أهل التخصّص من العلماء والباحثين والمشاركين في الموضوع.

وحسبي أن أكون قد أعطيت الموضوع ما يستحق من العناية والاهتمام حسب قدرتي المحدودة، وإن لم يكن ذلك كافيا، فما كن من صواب فهو من توفيقه وحده سبحانه، وما كان من تقصير ونحوه فمن قلّة بضاعتي وقصور الإنسان، والحمد لله الذي وفقني لهذا. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش :

[1]. البخاري: كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ [رقم:7352]. ومسلم: كتاب: الأقضية، باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ [رقم:1716].

[2]. الشرح والإبانة على أصول السّنّة والدّيانة، [ص:113]. لابن بطة العكبري. تح: عادل آل حمدان. ط:02. [1433هـ]. دار الأمر الأوّل. الرياض.

[3]. انظر في ترجمته: شجرة النّور الزكية في طبقات المالكيّة [277/1] الشيخ محمد بن محمد مخلوف. المكتبة السلفية.القاهرة، وسلوة الأنفاس ومحاضرة الأكياس بمن قبر من العلماء والصالحين بفاس [76/2] لمحمد بن جعفر الكتاني، تح:د.الشريف حمزة بن محمد الكتاني. الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس:04.

[4]. هذه القطعة من الترجمة من شجرة النور الزكية، وقد قال الكتاني: ولا يظنّ أنّ الهبطيّ هذا هو صاحب الشيخ سيدي عبد الله الغزواني... وصاحب الغزوانيّ هو: أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن محمد بن أحمد الطنجي؛ المعروف بالهبطي، المتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة" [78/2].

[5]. الأعلام: [128/4]. خير الدين الزركلي. ط:15. [2002م]. دار العلم للملايين. بيروت.

[6]. منهجيّة ابن أبي جمعة الهَبطي في أوقاف القرن الكريم: [79]. بن حنفية العبدين. دار الإمام مالك. باب الوادي. الجزائر.

[7]. انظر مقالا بعنوان: شرح أرجوزة الهبطي في أقسام العدة وأحكامها والحيض والرضاع. مجلة المذهب المالكي. العدد:06.

[8]. سلوة الأنفاس [78/2].

[9]. نفس المصدر

[10]. انظر: منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطي [ص:80].

[11]. انظر: منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطي [ص:80].

[12]. سلوة الأنفاس: [78/2].

[13]. سلوة الأنفاس: [76/2].

[14]. انظر: الوقوف الهبيطية دراسة تحليلية وصفية. زكريا توناني. مجلة القرآن الكريم.

[15]. انظر: منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطي [ص:81/80].

[16]. منهجية ابن أبي جمعة الهبطي [ص:91].

[17]. القراءات والقراء بالمغرب [ص:182]. سعيد أعراب

[18]. هذا المبحث مستفاد من المقال المنشور في مجلة إذاعة القرآن الكريم بعنوان: الوقوف الهبطيّة دراسة وصفية تحليليّة، بقلم: زكريا توناني، ومن الرسالة الجامعيّة الموسومة بـ: الأسس العامة التي بى عليها الإمام الهبطي وقوفه، لـ:محمد الصالح بوعافية. مع بعض الزيادة والتهذيب، فراجع الأصل إن أردت فإنّه مفيد.

[19]. الأسس العامة [ص:150].

[20]. انظر الأسس العامة [ص:150]. فما بعدها.

[21]. رواه البخاري؛ كتاب: فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده.[رقم:5033]. ومسلم؛ كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الأمر بتعهّد القرآن وكراهة قول: نسيت آية كذا، وجواز قول: أنسيتها.[رقم: 790].

[22]. منهجية ابن أبي جمعة الهبطي [ص:90].

[23]. منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطي [90].

[24]. منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطي [89].

[25] . منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطي [88].

[26] . الأسس العامّة [ص:06].

[27] . النساء [82].

[28] . منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطي [ص:06].

[29] . قراءة الإمام نافع عند المغاربة [1272]

[30] . قد وجد من قال بهذا، لكنّه لا يعنينا، لأنّي قدمت أني لن أدخل في بحثي هذا إلا من انتهج قواعد البحث العلميّ بعيدا عن المزادات التي تمليها الأهواء والشهوات.

[31] . المختصر الجامع لأصول رواية قالون عن نافع [ص:95]. عبد الحليم قابة. دار ابن كثير. دمشق بيروت.

[32]- ينظر الوقف عليها لنافع في القطع والائتناف 113 وفي المكتفى للداني 158.

[33] . قراءة الإمام نافع عند المغاربة [402] عبد الهادي حميتو.

[34] . نفس المصدر: [1285].

[35] . منهجيّة ابن ابي جمعة الهبطي [ص:91].

[36] . نقلا عن منهجية ابن أبي جمعة [ص:91]. ولم يذكر المرجع، وأظنّه منقول من كتابه شرح وقوف ابن أبي جمعة الهبطي لعبد الواحد المارغني، ولم أقف عليه لأتأكّد.

[37] . الأسس العامّة [ص:202].

[38] . نفس المصدر

[39] . منهجية ابن أبي جمعة الهبطي [ص:89] فما بعدها. بتصرّف وزيادة كبيرين.

[40] . منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي. [ص:06] الأستاذ عبد الله بن الصديق الغماري. دار الطباعة الحديثة. الدار البيضاء.

[41] . منحة الرؤوف المعطي [ص:32].

[42] . القراءات والقراء في المغرب [1291-1293].

[43] . منهجيّة ابن أبي جمعة الهبطي [ص:91].